أهمية الموضوع وسبب اختياره

لماذا الحديث عن القلب؟؟؟

هذا البحث الموسوم بـ إلا من أتى الله بقلب سليم يندرج تحت التفسير الموضوعي، وقد تكلمنا فيه عن القلب من جميع الجوانب وما يصيبه من أمراض وآفات من خلال آيات القرآن الكريم، السنة النبوية المطهرة.

سبب اختيارنا لهذا الموضوع والحديث عنه بالتحديد هو ما نشاهده في هذا العصر من زيادة الطلب للدنيا والزهد في الآخرة، وكيف أن حبها يُفسد القلب كما يَفسد العسل إذا أُضيف إليه الخل!، وكيف أن القلب هكذا يصبح قلباً قاسياً لضياع الحكمة منه ولا يصلح لسكن معرفة الله ومحبته والإنابة إليه.

ويكتسب الحديث عن القلب أهمية خاصة، لعدة أمور أجملها فيما يأتي:

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - أمر بتطهير القلب، وتنقيته، وتزكيته، بل جعل الله - سبحانه وتعالى - من غايات الرسالة المحمدية تزكية الناس، وقدمها على تعليمهم الكتاب والحكمة لأهميتها، يقول الله - تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[١].

قال ابن القيم - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٢].

جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا: القلب[٣].

ويقول - سبحانه وتعالى - عن اليهود والمنافقين: ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٤].

---

(١) سورة الجمعة آية: ٢.
(٢) سورة المدثر آية: ٤.
(٣) رسالة أمراض القلوب ص ٥٢.
(٤) سورة المائدة آية: ٤١.

فهذا سبب بارز ومهم للحديث عن القلب .

٢ - أثر هذا القلب في حياة الإنسان فهو الموجه والمخطط ، والأعضاء والجوارح تنفذ .

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (القلب ملك ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث القلب خبثت جنوده) [١] .

٣ - ومن الأسباب الجوهرية للحديث عن هذا الموضوع غفلة كثير من الناس عن قلوبهم ، فتجد - مثلا - بعض طلبة العلم يتوسع في بحث بعض الأعمال الدقيقة . ويتفقه فيها فقها عجيبا: هل تحريك الأصبع سنة؟ ومتى وكيف يحرك؟ . . . إلخ ، والبحث فيها نافع ومهم ولا شك ، في حين يغفل البحث في أعمال القلب وأحواله ، وأدوائه وعلله ، وهذا أهمّ وأجلّ .

٤ - أن كثيرا من المشكلات بين الناس ، وبالأخص بين طلبة العلم ، سببها أمراض تعتري القلوب ، ولا تبنى على حقائق شرعية ، فهذه المشكلات تترجم أحوال قلوب أصحابها ، وما فيها من أمراض مثل: الحسد ، والغل ، والكبر ، والاحتقار ، وسوء الظن . . . إلخ ، وسبيل حلها الأمثل هو علاج هذه القلوب . . وإلا فالمرض سيظهر بين حين وآخر كلما ظهرت دواعيه .

ونظرة إلى واقع المجتمع ، وما يحدث فيه بين الناس من مشكلات اجتماعية ، وخصومات في الحقوق والأموال تثبت صحة ذلك .

٥ - إن سلامة القلب وخلوصه سبب لسعادة الدنيا والآخرة ، فسلامة القلب من الغل والحسد والبغضاء وسائر الأدواء سبب للسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾[٢] ، وانظر إلى حال أبي بكر رضي الله عنه وغيره ممن رزق قلبا سليما ، خاليا من الضغائن والعلل .

٦ - يقول الإمام عبد الله بن أبي جمرة . "وددت أنه كان من الفقهاء من ليس له شغل

---

(١) التحفة العراقية .

(٢) سورة الشعراء آية: ٨٨ - ٨٩ .

إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم ؛ فما أتي كثير ممن أتي إلا من قبل تضييع ذلك[١] .

حيث يبين هذا الإمام أهمية تعليم الناس مقاصدهم في أعمالهم ، وتنبيههم على مفسدات الأعمال . فإنه كما أننا نشهد من يتخصص في أنواع العلوم كالحديث والفقه والتفسير والنحو والفرائض وغيرها ، فيتقن هذه العلوم ، ويبلغها الناس ، فنحن بحاجة إلى من يتقن الحديث عن مقامات القلب وأحواله ، وأعماله وعلله وأدوائه ، فيعلمها الناس ويصحح مقاصدهم ونياتهم .

٧ - ما أعطي الله لهذا القلب من مكانة في الدنيا والآخرة ، وانظر إلى أدلة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

١ - يقول الله - تعالى - على لسان نبيه إبراهيم ﷺ ﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٢] . فلن ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم .

٢ - يقول - جل وعلا -: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[٣] ، فأين القلب المنيب وما صفته؟

٣ - وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٤] .

٤ - وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعا: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٥] .

---

(١) محاضرة الشيخ سلمان العودة عن النية . المدخل لابن الحاج (١/ ٣) .
(٢) سورة الشعراء آية: ٨٧ - ٨٩ .
(٣) سورة ق آية: ٣١- ٣٣ .
(٤) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٧) .
(٥) رواه البخاري (١/ ١٢٦ فتح) ومسلم (٣/ ١٢١٩) .

وكفى بهذا الحديث واعظا وزاجرا، وعبرة لأولي الألباب.

٨- أن أقوال القلب - وهي تصديقاته وإقراراته، وأعماله وحركاته من: خوف ورجاء ومحبة وتوكل وخشية وغيرها، هي أعظم أركان الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وبتخلفها يتخلف الإيمان. وها هم المنافقون يقولون الشهادة بألسنتهم، ويشاركون المسلمين في أعمالهم الظاهرة، ولكنهم بتخلف إقرارهم وتصديقهم كانوا ﴿ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[1].

٩- أن كثيرا من الناس جعلوا جل همهم تفسير مقاصد الناس، وتحميل تصرفاتهم ما لا تحتمل، وتجاهل الظاهر، وترتيب الأحكام على تنبؤ عمل القلوب، مما لا يعلمه إلا علام الغيوب، والغريب أن هناك من يعتبر هذا الأمر ذكاء وفراسة وفطنة، وليس هو من الفراسة الشرعية في شيء. فنحن مأمورون أن نؤاخذ الناس بظواهرهم ونكل سرائرهم إلى الله تعالى، ومن هنا كانت أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره.

* * * * *

(١) سورة النساء آية: ١٤٥.